علقمة الفحل ومعادله الموضوعي

الدكتور: عبد الرحمان خلدون
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة - الجزائر

الملخص

اتخذ الشاعر الجاهلي الظليم والنعامة وسيلة للتعبير عن تجربته في الحياة وصراعه من أجل البقاء، فغدا جزءا من عقليته وعقيدته، ونظر إليهما نظرة أسطورية، بغية تحقيق دلالات في تقرير موقف فكري، وذلك من زوايا رصد متباينة، حتمتها المناسبة وطبيعة الحدث. بيد أن ما أفرزه هذا الارتباط، يتوقف على قدرة الشاعر وموهبته في تطويع تلك القصة في خدمة التجربة الموضوعية بمكوناتها الفنية التي تعارف عليها الشعراء.

RÉSUMÉ:

Le poète de l'ère pré-islamique a pris Injustice et complaisancepour exprimer son expérience dans la vie et sa lutte pour la survie, il est devenu une partie de sa mentalité et de sa foi et les a considérées comme une vision mythique Cependant, ce sur quoi repose ce lien dépend de la capacité du poète et de son talent à adapter cette histoire au service de l'expérience objective de ses composants.

تمهيـــد

عاش النعام في الجزيرة العربية فترة من الزمن، فعـرف الجـاهليون أحوالـه وصفـاته وتحدثوا عن سرعته وعن فراخه وبيضه، وعرفوا فيه الخوف والحمق، وهـو ثـالث الحيوانـات التي ترتبط صورته بصـورة النـاقة في الشعـر الجـاهلي، وتأتي صورته أكثر إيجازا من الثور وحمار الوحش، يقول علي البطل«إننا نرى الظليـم قسيما للثور الوحشي وحمار الوحـش في تشبيه الناقة به، وكثيرا ما يبدأ به الشاعر ثم يضرب عـن صـورته ناقلا التشبيـه إلى أحـد بديليه»[1]، والظليم هنا ذكر النعـامة؛ الذي ركـب من خلقة الطير، أخذ منه المنقار والجناح والريش، ومن خلقـة الجمـل العنـق والوظيـف والمنسـم[2]، وسمي ولقب بمسميات متعددة منها: الظليم، والنَقْنَق والخَاضِبْ، والهَيْق والصُّعل والمُصلّم، يقال للذكر الهَيْقَ والظَّلِيْم، والأنثى نَعَامَة ورَأْلَة، كما يطلق على الجماعة منه (خَيْـط)، وولـده (الرَّال)، والأنثـى (رَأْلَة)[3].

ويعدّ الظليم بديل الناقة الوحيد المنتمي ببنيته إلى عالم الطير، «إذن فهذا الظليم هـو واحد من تحولات الناقة، وهو واحد من تحـولات الظعـن أيضا، النـاقة والظليـم والظعـائن تجليات مختلفة لمواقف الشاعر من الدهر»[4]، وقد ترددت قصـة الظليـم ونعـامته في عـدة دواوين، عنـد امرئ القيس وزهير والأعشى وعلقمة الفحل وسواهم، لكن كان أحسنهـم في هذا المجال علقمـة الفحل، فقد اتسع في الحديث عنه ولم يبلغ شاعر مبلغه، فلم «يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد، ولا وصـف الخمر إلا احتـاج إلى أوس بـن حجـر، ولا وصـف أحـد النعـــامة إلا واحتاج إلى علقمة بن عبدة»[5].

علقمة الفحل ووصف الظليم ونعامته

وردت قصة الظليم والنعامة مكتملة في ديوان علقمة الفحل، حيث استوفـى فيـها العناصر الفنية، «الرّعي، والمطر، وتذكّر القيض_بيض النعام_الذي يضرّ به المطر ويفسـده وعودة الظليم إلى عرسه، إذ يوحي إليها بنقنقـة كرطانة الرّوم، وتجيبه هي بزمار مرتّم، بمـا في هذا الترنيم من الدّلال الأنثويّ»[6]، وهي من أجمـل القصـائد وصفا للظليـم والنعـامة، وقـد استطرد إلى تلك القصة من خلال تشبيه ناقته بالظليم، فأعطانا صورة مطولة نـادرة، فنجده يقـــول[7]:

1-كَـأَنَّهَا خَـاضِـبٌ زُعْـرٌ قَوَائِمُـهُ أَجْنَى لَهُ بِاللِّوَى شَرْيٌ وَتَنُّـــومُ[8]

2-يَظَلُّ فِي الحَنْظَلِ الخُطْبَانِ يَنْقُفُهُ وَمَا اسْتَطَفَّ مِنَ التَّنُّومِ مَخْذُومُ[9]
3-فُوهٌ كَشَقِّ العَصَا لأياً تَبَيُّنُـــهُ أَسَكُّ مَا يَسْمَعُ الأَصْوَاتَ مَصْلُومُ[10]
4-حَتَّى تَذَكَّرَ بَيْضَاتٍ وَهَيَّجَـــهُ يَوْمُ رُذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغْيُـــومُ[11]
5-فَلَا تَزَيُّدُهُ فِي مَشْيِـهِ نَفِـــقٌ وَلَا الزَّفِيفُ دُوَينَ الشَّدِّ مَسْـؤُومُ[12]
6-يَكَادُ مَنْسِمُـهُ يَخْتَـلُّ مُقْلَتَـــهُ كَأَنَّهُ حَاذِرٌ لِلنَّحْسِ مَشْهُـــومُ[13]
7-يَأْوِي إِلَى خُـرَّقٍ زُعْرٍ قَوَادِمُهَـا كَأَنَّهُنَّ إِذَا بَرَّكْنَ جُرْثُـــومُ[14]
8-وَضَّاعَةٌ كَعِصِيّ الشَّـرْعِ جُؤْجُؤُهُ كَأَنَّهُ بِتَنَاهِي الرَّوْضَ عُلْجُـــومُ[15]
9-حَتَّى تَلَافَى وَقَرْنُ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ أُدْحِيَّ عُرْسَين فِيهِ البَيْضُ مَرْكُومُ[16]
10-يُوحِي إِلَيْهَا بِإِنْقَـاضٍ وَنَقْنَقَـــةٍ كَمَا تَرَاطَنُ فِي أَفْدَانِهَـا الـــرُّومُ[17]
11-صَعلٌ كَأَنَّ جَنَاحَيْهِ وَجُؤْجُـــؤَهُ بَيْتٌ أَطَافَتْ بِهِ خَرْقَاءُ مَهْجُـومُ[18]
12-تَحُفُّهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَـــاضِعَةٌ تُجِيبُهُ بِزِمَارٍ فِيـهِ تَرْنِيـــــمُ[19]

لقد تحررت الناقة من مساورة الدهر ومناوشته، وغدت ظليما، من أوصافه أنه أحمر اللون يبدو وقد خضب بالحناء، له قوادم تميزت بقصر الشعر فيها، وفي المكـــان الذي يعيش فيه لديه نوعان من الطعام هما: الشرى والتنوم، فيظل يومه الأطول يهيم في شجـــر الحنظل وهو أشدّ ما يكون مرارة فيستخرج حبّه ويأكله، «يبدو أن ذكر الشاعر للحنظل الذي يلتهمه هذا الظليم_برغم مرارته الشديدة_يشير إلى مرارة الحياة التي طالما تجرّعها الشاعر، ولذا كان ما ارتفع من الحنظل في شجره قد أكله الظليم، فلعل الشاعر يرمي بهذه الإشارة إلى أنه قد جرّب أعتى الخطوب ومارس أقصى مصائب النفس وأكثرها إيلاما»[20] وهو على هذا الحال تهبّ عليه رياح الحياة رخاء، استلطف المكان وأعجبه، فليس يعجله معجل، من أوصافه أنه قد تميز بفم لا يستبين، أهو لاصق أم مفتوح، كأنه شـــق في عصا (فُوهٌ كَشَقِّ العَصَا)، وهو أصم الأذنين لا يكاد يسمع، مصلومتان، أي صغيرتان لاصقتـــان برأسه، فكأنه لم تخلق له أذنان(أَسَكُّ مَا يَسْمَعُ الأَصْوَاتَ مَصْلُومُ)، هذا التصوير الدقيق نبع من حس مرهف، وعاطفة صـــادقة.

الحـــب والخـــوف:

تتداعى لدى الشاعر عاطفة الحنين إلى الأحبة وأطلالهم، حيث فرّ من مواجهة الزمن الحاضر وفاء إلى الماضي الجميل يتفيأ ظلاله الوارفة، ويتنسم أريجه الطيب، هذا الماضي الذي بددته الأيام وكان يحلم باستمراره أو استرداد بعضه من قبضة الدهر، «إنها الحسرة والحزن والإحساس العميق بخيبة الأمل الذي يتولى كل شيء، إنها الخيبة المدمرة، بل إنها رثاء الحياة نفسها، وهذا تصوير حي صاف لعلاقة الإنسان الجاهلي بالحياة»[21]، تخيل وأسقط ما اختلجت نفسه المجروحة على هذا الظليم وقد رأى معاناته هي معاناة الظليم، وهنا يبدأ الجزء الحركي في القصة، يتذكر الظليم بيضه في أدحيه الذي تركه في حضانة الأنثى وسوف يفسد إذا تركته، فقد طالت حضانتها له، «في قصة الظليم، البيض، والرّئال يشيران إلى إرادة الحياة الآمنة المستقرة وإنجاب الذرية، والتكاثر، واستمرار النوع وحفظ الحياة من الضياع والقتل»[22]، فنراه قد ثار وهاج، وغضب على نفسه، لأنه قصر في حق أهله وزاد اهتياجا وفزعا وهلعا حين اكفهر الطقس عليه وتلبدت فوقه السحب، وبدأ رذاذ المطر في السقوط(حَتَّى تَذَكَّرَ بَيْضَاتٍ وَهَيَّجَهُ يَـوْمُ رُذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغْيُومُ)، «للمطر علاقة مهمة بقصة الظليم والنعامة، التي يتكرر ذكرها في الشعر العربي قبل الإسلام، فآلاء والحنظل والتنوم وما ينعم به النعام من نبات الصحراء كله من نتاج المطر، فضلا عن أنه يثير الفزع والهلع في قلب هذا الطائر فيهرب من الريح التي تحمل السحب الممطرة والرذاذ»[23].

يفزع بلهفة الأبوة بسرعة خاطفة، عائدا من مرعاه الخصب إلى أدحيه، قبل أوان الرواح وهو لا يسأم السير، ولا يلوي على شيء إلا حماية أسرته، من قسوة الطبيعة وتقلباتها المهلكة، مجيبا داعي القلب بأقصى سرعة ممكنة؛ ولعل تجسيد السرعة إلى جانب الانفعالات والعواطف، يضفي على الظليم مشاعر الخوف والحنين، التي يتمتع بها، وهي غريزة مطلقة نابعة من أبوة الظليم؛ أبوة كلية لا يحول دونها حائل.

فتراه من جريه وإرقاله يزج برجليه زجا شديدا، ويميل عنقه حتى يكاد منسمه يشك عينه من شدة عدوه، مع أنه ليس ثمة من يخزه ليستحثه على العدو(يَكَادُ مَنْسِمُهُ يَخْتَلُّ مُقْلَتَهُ)، وصدره كعود الغناء في تقوسه، وحجمه حجم البعير الأسود الذي طلي بالقار، وعدوه أسرع من عدو الإبل، فيرفع خفه ويخفض رأسه، وقد انتشر ريش صدره لشدة العدو، فلا ينقطع سيره، ولا تنفق سرعته حتى يبلغ غايته، وقبل أن يصور الشاعر وصول الظليم إلى

أدحيه، يصور لنا فراخه وكأنه يقدم مبررا لما يعتلج في صدر الظليم من قلق عليها، فيتصور فقس البيض وضعف فراخه وحاجتها إلى حمايته، فيشتد في عدوه ويزيد من سرعته حتى يصل أخيرا إلى أسرته قبل هبوط الليل، فلما وصل إلى (أدحيّه) طاف به طوافين يقفر ويطمئن أن أحدا لم يسبق إليه في غيبته(حَتَّى تَلَافَى وَقَرْنُ الشَّمْسِ مُرْتَفِعٌ، أُدْحِيَّ عُرْسَيْنِ فِيهِ البَيْضُ مَرْكُومُ)، يقول أنور أبو سويلم «إنّ الشاعر أراد أن يضع الظليم والنعامة في ظروف قاسية، تستدعي سرعتها، فأثار العاصفة والليل المخيف والبيض الذي يحتاج إلى الدفء، وقصّ من حياتها الطبيعية التي يراها كل إنسان بين زوجين من الحيوان، أو الطير»[24]، ثم آوى إلى بيضه وفراخه الصغار التي تجمعت وتداخلت فكأنها أصول الشجر الرّابية بم سفت عليها الرياح وطفق يراطنها بنقنقته، فكأنه وكأنها الروم تتراطن في قصورها فتتجاوب فيه أصوات الظليم وعرسه وصغاره(يُوحِي إِلَيْهَا بِإِنْقَاضٍ وَنَقْنَقَةٍ، كَمَا تَرَاطَنُ فِي أَفْدَانِهَا الرُّومُ)، وإذا ما رفع جناحيه تراءى كأنها خباء من شعر أو صوف، قد سقط وقامت على صلاحه امرأة خرقاء، ترفعه من جانب ليسقط من جانب آخر، ثم يصور زوجه كيف استقبلته بفرح يشوبه القلق لطول الانتظار، تحفه وتلتصق به، وتجاوبه بصوت أنثوي خاص فيه دلال الأنثى وغزلها، يخالط هذا الصوت الإحساس بالبهجة والانفعال القوي، حيث يصدر صوتها لا في طبقته العادية وإنما دخله الترنيم بين حدة وعمق، وتنوعت شدته بين وضوح وخفوت، تتنقل من حوله دائما تبدي خضوعها لسيد الأسرة وتعبّر عن مشاعرها بصوتها، وتقف إلى جواره وتراقب فرحته بأولاده وفرحتهم به بعد غياب يوم طويل، ثم تقترب منه وتلف من حوله وتتمسح به من فرط حبها وحنانها وشكرانها، وتمد عنقها الطويل وتميله وتثنيه من جانب إلى جانب، في مراقبتها وتتبعها لتلك الأحداث السعيدة، وهي مشاركة عاطفية قويةَ (تُحُفُّهُ هِقْلَةٌ سَطْعَاءُ خَاضِعَةٌ تُجِيبُهُ بِزِمَارٍ فِيهِ تَرْنِيمُ)، كل هذه الملامح التصويرية تشير إلى وقت الربيع، ووقت الخصوبة، ولذلك نرى الشاعر يظهر الظليم ونعامته دائما بين موسمي تناسل، واحد انقضى؛ وذلك ببدء فقس البيض، وواحد يوشك أن يبدأ: بتخضبه، وخضوع زوجه التي تستقبله فرحة مغازلة.

الشاعر ومعادله الموضوعي

هذه السعادة الفانية نراه استغلها الشاعر، فرسم لوحة فنية رائعة ترتفع بها ألوية الطبيعة الزاهية المتدفقة بكل لون، لأنه رآها امتدادا لحياته، وتعبيرا عن وجوده، فهي وسيلة للتدقيق في علاقة الإنسان بالوجود، الذي يتكامل به ويحقق ذاته ويحميها، ولذلك تعتبر اللغة متأثرة بالموقف الحياتي والوجداني لأصحابها، وهي تتطور وتتصف بكل ما يعتري نفوسهم من هواجس واختلاجات وتنازعات، يقول عبد العظيم قناوي «إن وصف مناجاة الظليم عرسه تصوير لا يصدر إلا عن عاشق متيم حديث للنساء، يعرف لغة القلوب، ويفهم ومضات العيون»[25]، هذه المناجاة التي منحها الشاعر للظليم، هي صفة إنسانية خالصة، بل إنسانية مهذبة وواقعية، وذلك عندما شبه نقنقته بحديث قوم من بني البشر، فيها قوة وضعف من الرجل، ونغمات وعذوبة من المرأة، هذا الاستعمال اللفظي بين لنا مقدرة الشاعر الأصيل وبراعته الفكرية وثقافته الأدبية، فهو يأتي إلى المعنى البسيط فيجيد وضعه في موضعه المناسب، فيكسبه قوة جديدة، ويجعله كبيرا بذاته.

هنا الشاعر يضع أمامنا صورة حية، وهي صورة أسرة متوادة متراحمة، يحفها الحب وتعم قلوبها البهجة والسرور، وتغمرها عاطفة الأبوة النبيلة الجياشة، وحنان الأم المتدفق وحبورها المتوهج، الذي يكاد ينقلب إلى غناء ورقص بعودة الزوج والتئام الشمل، «ذاك مشهد تآلف وانتصار على القدر والذات الطبيعية بين عائلة من الحيوان، معكوس عن عائلة الإنسان فكان ثمة مصير واحد ينتظم سلك الأحياء»[26]، فأية مشاعر إنسانية نبيلة مدهشة هذه، التي استطاع(علقمة الفحل) أن يبثها ويصوّرها في هذا المشهد العاطفي الفريد؟، فهو تصوير فريد من نوعه، حي صاف لعلاقة الإنسان الجاهلي بالحياة في ساعة فرح، ولكنه الفرح الجاهلي المسكون بالحزن والحسرة والخوف من المجهول، بل هو الفرح الذي يقابله حوادث الدهر وغيلة الأيام.

هذه لوحة تجسيدية للظليم وللشاعر في الوقت نفسه، فقد رأى علقمة أنه رفيق الكفاح في سبيل تأصيل الحياة وتوكيدها، ضد كل ما يكدر صفوها ونقاءها ووفرتها، ومن هنا كان اغتباط علقمة بنقنقة الظليم عندما التقى بنعامته وفراخه، وتخيل في هذا الموقف التقاءه بأهله وأحبائه، وقد التأم الشمل، حين التقى بالأهل والأحباب، ومرّت أزمة الرعب والخوف، يقول أحمد موسى النوتي «يحنّ الشاعر حنين الظليم لأهله وعرسه، بعد أن طال

به النوى وراح يضرب الصحراء ويخبط بها خبط عشواء الليل، فالشاعر ينشد الأمن والأمان، والراحة والدّعة كما ينشد الظليم أنثاه وصغاره وأدحيه»[27]، فعبر هذا المقطع تنمو المعاني وتتباين طبيعتها وتتطور بين الفرح والحزن، ففي المقطع الأول من القصيدة نشاهد فرحا وسرورا وهو يرعى الحنظل والتنوم، وسرعان ما تتبدد وتتجهم في الأبيات اللاحقة حين أقبلت العاصفة الممطرة، ثم تعود حياة السعادة من جديد، حين يلتقي الظليم بأسرته وعودته لحالة الفرح والغبطة و«لعل اختيار الشاعر لهذه القصة قد جاء تعبيرا عن حاجته إلى الاستقرار والهدوء»[28]، فقد رأى نفسه أنه بعيد عن حياة الأمن والهدوء، فوصف ذاته بقطع المفاوز وتعرضه للهلاك، وزاده في سفره أسوأ الزاد، وشرابه أردأ الشراب، فيسير في الهواجر والقفار باحثا عن ذلك الأمن وتلك الطمأنينة، إذن رغبة الشاعر في إيصال عواطفه وانفعالاته التي تنتابه جراء ما حصل له، جسدها من خلال تصويره لأحاسيس هذا الحيوان فقد تقمص حالات النفس الحيوانية، وذلك في لحظات الفرح والتوجس والرضا، فعالج كل ما يختلج نفسه، من أحاسيس الغربة والحنين والخوف من الهلاك بعيدا عن قبيلته، هذه المشاعر المتدفقة من الشاعر كانت ظاهرة منذ البداية.

كل هذه المشاهد، تكشف عن براعة علقمة في استكمال عناصر القصة من الشخوص والمكان والزمان والأحداث، ولعله في هذا أراد تصوير ما يشعر به من شوق إلى الاستقرار والهدوء النفسي مع الأسرة، وصوّر من خلال هذه القصة مشاهد عاطفية مثيرة فيها من المعاني الإنسانية والتعاطف بين الظليم ونعامته الكثير، وقد عرض ذلك في أسلوب قصصي شائق.

لقد اعتمد الشاعر في رسم هذه اللوحة الجميلة، على المشاعر الإنسانية العميقة عايش بها الظليم منذ بدء رحلته حتى إيابه إلى أسرته، ونسب هذه المشاعر إلى الظليم فكأنه يفعل ما يفعل بوعي عقلي لا عن غريزة طبيعية، فهو يتذكر أسرته حين يهطل المطر، فيأوي إليها بسرعة، وقد انتابه القلق عليها، وثارت ثائرته، فيدع كل شيء أمامه حتى يصل إلى أدحيه «مما يرجح أنه كان على وعي تام باختياره لقصة الظليم، لأنها الأقدر على استيعاب مشاعره الخاصة، فاستطاع أن يصوّر شوقه إلى الاستقرار الأسري متخذا من هذا المشهد ما يوفّر له الهدوء النفسي بعد أن أضناه السفر والتنقل، والذكريات»[29]، وفي هذا التعبير من

المشاعر الإنسانية الحميمة شيء كثير، حيث تجمع المودة والرحمة بين الزوجين، حين يطل على بيته، فيعلو الصياح منه ومن زوجه، معبرا عن عشهما بأنه (أدحى عرسين)، لذلك فهما يتكلمان لغة إنسانية وإن لم تكن غير مفهومة، حين شبه تخاطبهما المبهم المترنم بعد طول غيبة، بتراطن الروم في قصورهم، وهو إيحاء من الشاعر لإحساسه بالحنين إلى الأهل والوطن، لكثرة ترحاله حتى بات غريبا عنه، قد حنّ لهذا الجو الأسري الدافئ المطمئن لحاجات النفس وهواجسها، يقول وهب أحمد رومية «وأرجو ألا يخدعك الشاعر فتتوهم أنه أراد بهذا الاستطراد تصوير سرعة الناقة أو تصوير الهوادج أو تصوير كرم الممدوح كما يزعم لا شيء في هذا الزعم يستحق أن تعني نفسك به إلا إنكاره ودحضه، ولكنها موضوعات ينفذ إليها الشعراء بطريقة فنية ماكرة للتعبير عن همومهم ورؤاهم ومواقفهم»[30]، وهذا النزوع الحاصل للشعراء بتشبيه رواحلهم بالظليم، لا يقف خلفه مقارنة سرعة هذا المخلوق بسرعة الناقة وحسب، بل إسقاط كل ما يختلج نفس الشاعر على هذا المخلوق الضعيف، وإلا لما احتاج الشاعر إلى خوض بعض التفاصيل الثانوية المتعلقة بالمشبه به، ومنها الاهتمام بمشاعر الحيوان وتصويرها، بأسلوب مشوق وممتع إلى مستوى يجعل المتلقي يشعر أن الحيوان البري ينطق بلسان الشاعر ويفصح عن معاناته الإنسانية، وإن كان الإسراع في العدو هو العامل المشترك بينهما، تقول أوراس نصيف جاسم «لعل ميمية علقمة الفحل خير شاهد سبر أغوار نفس الظليم والنعامة، ملقيا عليهما كثيرا من ظلال نفسه الراغبة في طرد الوحشة والخوف، النابعين من شعور الغربة الذي يصيب المسافرين في سفرهم الطويل، لكي يخلقوا في نفوسهم جوا من الألفة والإيناس، من خلال سرد بعض التفاصيل عن الحياة العائلية لهذا الطائر»[31].

خـــاتمة:

في هذه المقطوعة نرى جزء من إرادة الجاهلي، فرغم الظروف التي جابهته، إلا أنه كان قويا، غالب الموت بإرادته، ليستقر في معركة الحياة؛ حياة تموج بالمخاطر، إذ يصور لنا الشاعر نفسه ويشبهها بالظليم المذعور المسرع نحو فراخه، فاتخذ من صورته سبيلا إلى تسهيل العدو، والتجاء والخلاص من المكروب، ولا سيما في قطع الطرق الموحشة والفيافي المقفرة، وعند مروره على ديار القوم بعد أن تحمل أهلها عنها، هذا العدو الشديد حرر إرادة

الشاعر، وحرر مبادرته ليؤول إلى قدرات استثنائية، ضرورية ولازمة لصورة البديل التي يراها، والشاعر هنا يتوق إلى واقع غير الواقع المعيش ولعله الواقع المتخيل الذي ترنو إليه الأحاسيس والمشاعر الداخلية للإنسان.

والشاعر اختار طائر(النعام)، لأنه يراه أقدر على إيصال الصورة بكل وضوح ومعنى فقد تميز عن غيره من الطيور بصفات أهمها: النشاط وسرعة العدو، شدة الحذر إظهار الحنان والعاطفة، الخوف والفزع الحاصل، الحب والكره، الفطنة والكفاح المتواصل للحفاظ على استمرارية البقاء، وهنا تتجلى «قدرة الشعراء على تمييز الطير ومعرفة طباعه ،...، فاختاروا النعام الذي يقف بين الحيوان والطير، ...، وتمييزه بسرعة فائقة وخفة، مما دفعهم للوقوف عند بعض عاداته وقوفا طويلا واستقصوا أوصافه»[32]، التي عبرت عن قدرات الشاعر وذاتيته الغابرة؛ ذاتية أخذت تتضخم، لتعادل قوة العصبية القبلية، وقد وجد علقمة في هذا الظليم ونعامته حاجته الخفية وضالته المنشودة.

قصة الظليم والنعامة هنا شكلت ركنا مهما من أركان بناء القصيدة العربية الجاهلية وقد لجأ الشعراء إلى هذه القصة للتعبير عن المشاعر الإنسانية، التي لا توفرها قصص الحيوان الأخرى، وترد هذه القصة عند أكثر الشعراء موجزة، ولعل رقة المشاعر التي تقف وراء هذه القصة قد دفع الشعراء إلى هذا الإيجاز، فضلا عن قلة الأحداث والشخوص في تلك القصة، يقول وهب أحمد رومية «قصة الظليم مختلفة عن تلك القصص اختلافا عميقا فليس فيها ما في تلك القصص من الشقاء وضروب العدوان والصراع والخوف والموت، بل هي النقيض، إنها تعبر عن الحياة ونواميسها بل تصور وتجسد وتشخص هذه الحياة في إقبالها العذب، وجمالها الأخاذ ومشاعرها النبيلة الحارة حين يغمض الدهر كلتا عينيه عنها إلا في النادر جدا الذي يعد انحرافا له دلالته»[33]، وقد ظهر هذا الطائر في الرحلة لدى الشاعر الجاهلي دون سواه من الطيور، ولا يقل دوره في شعرهم عن دور حمار الوحش أو ثور الوحش، الذين شبه بهما الشاعر ناقته وحملها همومه وأشجانه، وبرزت صورته الذاتية مرافقة لهذه الحيوانات على جدد الصحراء.

الهوامـــــــش والمراجـــــــع

1 علي البطل، الصّورة في الشعر العربي، حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراســـــة فـــي أصولها وتطوّرها، دار الأندلس، ط2، 1981، ص: 145.

2 ينظر: جلال الدين محمد بن عبد الرحمـــن، القزويـــني (ت739ه)، عجـــائب المخلوقـات منشورات دار أفاق الجديـدة، بيـروت، لبنـــان، جـاب ششم انتشـار سـال، 1981 ج2، ص: 256.

3 ينظر: كمال الدين محمد بن موسى، الدميـري، حيـاة الحيـوان الكبـرى، ج2، دار إحيـاء التراث العربي، بيروت، ط1، د.ت، ص:310، 312.

4 وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفـة، سلسلة كتـــب ثقـــافية شهرية يصدرهـا المجـلس الوطنـــي للثقـافة والفنـون والآداب، الكويـت، مـارس 1996 ص: 208.

5 المرجـــع نفسه، ص: 206.

6 عماد على الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، دراسة في نقد وتحليـــل الشـعر الجـــاهلي جهيـــــنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص: 233.

7 الشنتمري الأعلم (ت476ه)، شرح ديوان علقمة بن عبدة الفحل، حققه وقدم له ووضـــع هوامشه وفهارسه: حنّا نصر الحتي، ص: 38-42.

8 أبو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، ج2، دار صـادر، بيـروت، ط1 1968، ص: 118، مادة (خضب) (الخاضب: الظليم، إذا اغتلم (أي هاجت غلمته وهـي شهوته الجنسية)، وهذا خاص بالذكر لا يعرض للأنثى)، وهو ذكر النعام الذي أكـل الربيع واحمرّت قوائمه، وأطراف ريشه، الزعر: القليـلة الريـش بذلك تـوصف الظُلمـان، وقـوله: أجنى: أي أنبـت له الثمر، اللوى: ما التوى من الرمل وهو ههنا موضـع بعينه، شري: شجر الحنظل، والتتوم: نبت وهو شَهْدانِجُ البـَر. وفي شـرح اختيـارات المفضـل، ص: 1609

(الخاضب: الظليم رعى الربيع، لسمنه وقوته، وقال بعضهم: سمّي خاضبا لأنه خضب رجله بأنوار البقل أيام الربيع، والزعر: القليل الريش، والقوادم: من كبار الريش، وهي القدامى وأجنى له: أي جعله جنى، والشري: شجر الحنظل والظليم يأكل حبّ الحنظل والتنوم: شجرة لها حبٌّ مثل شجر العنب، ترعاه النعام، وجعل الظليم أزعر، لأنه أسنّ فتحاص ريشه). نفسه، ص: 38، 39. ومنتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص: 189.

9 يظل في الحنظل الخطبان: يعني أن الظليم مقيم في خصب، والخطبان: من الحنظل الذي صارت فيه خطوط صُفر وحُمر، ينقفه: يكسره ويستخرج حبّه، المخذوم: المقطوع استطف: أي ارتفع، يقطع من أغصانه ويرعاه. نفسه، ص: 189. والشنتمري الأعلم (ت476هـ)، شرح ديوان علقمة الفحل، ص: 38، 39.

10 فوه كشق العصا: أي ما تكاد تستبين ما بين منقاريه لشدة التصاقهما، لأيا: بطيئا، أسك: ما يسمع، أراد أسكُّ الشيء الذي يسمع الأصوات، أي أسك الأذنين، والسّكك: صِغر الأذن وضيقها، المصلوم: المقطوع الأذن من الأصل، وبذلك توصف النعام، وقال ابن الأعرابي: النعام صُلْخ لا تسمع الأصوات، ولا تشرب الماء، يقال: صَلْخٌ كَصلْخِ النُّعامة أي: صَمَمٌ، وفي شرح اختيارات المفضل، ص: 1610: (أي فوه متلاصق، ليس بمفتوح وقوله: لأيا تبينه، أي: بعد جهد تتبينه، وقوله: أسك ما يسمع الأصوات، يجوز أن يكون (ما) بمعنى الذي، والمعنى: أسك الشيء الذي يسمع الأصوات يريد: أسك الأذنين صغيرهما والمصلوم: المقطوع الأذنين، والصلم خلقة في النعام). نفسه، ص: 39. ومنتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي المجلد الأول، ص: 189، 190.

11 حتى تذكر بيضات: أراد يظل في الحنظل الخطبان حتى تذكر بيضات فأسرع إليها

وهيّجه على ذلك رذاذ وريح وغيم، فهو يسرع إلى بيضه لئلا يفسد ويتغير، الرذاذ: القطر الصغار عليه الريح: أي اشتملت على اليوم الريح في شدّة، ويروى: علته بالتاء، أي: غلبت عليه وظهرت، المغيوم: من الغيم الذي ألبسه الغيم أي: ذو غيم. الشنتمري الأعلم(ت476ه) شرح ديوان علقمة الفحل، ص: 39، 40.

12 التزيد: فوق المشي، التَّفيق: الذاهب المنقطع، يقال: نفيق الزاد إذا نفد وانقطع، الزفيف: دون العدو، الشدّ: العدو الشّديد، المسؤوم: من السأم، المملول يقول: لشدة عدو هذا الظليم وحرصه على إدراك البيض أو الأفراخ لا يسأم الزفيف. وفي شرح اختيارات المفضل، ص: 1611 (التزيد: المشي فوق العنق، والنفق: السريع الذهاب، والزفيف: دون الشدّ قليلا، وصغر دوين تقريبا، والمسؤوم: المملول). نفسه، ص: 40. ومنتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي، المجلد الأول، ص: 190.

13 يكاد منسمه: يريد ظفره، والمنسم: طرف خُفِّ البعير، استعاره للظليم، يختل مقلته: يريد أنه يزجّ برجليه زجّا شديدا، ويخفض عنقه، ويمدّها في عدْوة فيكاد ظُفْره يصيب مقلته فيشقُّها، يقال: خللت الشيء وأخللته إذا شققته، ومنه تخلَّلت القوم: إذا شققتهم وصِرْت خلالهم، أي: بينهم، المشهوم: الفزع، والشَّهْم: الذكيّ القلب، ويقال: شهمه شرّ، إذا أفزعه يقول: كأنّ هذا الظليم يحذر أن يُنْخَس، فهو يَجُدّ في العدْو، ويستخرج أقصى جُهده. علقمة الفحل، شرح ديوان علقمة الفحل، ص: 40.

14 يأوي إلى خرق: أي يأوي هذا الظليم إلى فراخ خرّق بالأرض، أي: لوازق بها؛ لأنها صغار لا تطيق النهوض، زعر قوادمها: ريش القوادم لم ينبت بعدُ لصِغَرها، الجرثومة: أصل الشجرة تَسفي إليه الرياح الترابَ وتجمعه، شبه الفراخ في بروكها ولصوقها بالأرض واجتماعها. نفسه، ص: 40، 41.

15 وضاعة: عدو سريع من عدو الإبل، والتاء في وضّاعة للمبالغة، كعلاّمة ونسّابة، وصف به

الظليم، أي يضع في سيره، كما يضع البعير، وهو ضرب من العدْو، ويقال: وضع البعير وأوضعه راكبه، كعصي الشرع: شبّه عنق الظليم بالبَرْبَط، وهو العود، والشّرْع: أوتاره واحدتها: شرْعة، الجؤجؤ: الصدر يريد أنّ صدره وعنقه كالعود، شبه صدر الظليم بالبربط في تقوسه، تناهي الروض: حيث ينتهي السيل ويستقر، العلجوم: الليل، وقيل جبل الليل، شبّه الظليم به لسواده، والعلجوم أيضا: البعير الطويل المطليّ بالقطران، أيضا الجمل الضخم، ويحتمل أن يشبّه الظليم به في عظم خلقه. وفي حاشية الأصل:(عصي الشرع: البربط، والشرع: الأوتار، وتناهي الروض حيث ينتهي إلى حسكل الصغار). نفسه، ص: 40، 41. ومنتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي، المجلد الأول، ص: 190.

16 حتى تلافى: أي تدارك، والأدحي: مبيض النعام لأنها تدحوه بأرجلها، أي: تبسطه وتسهّله بالعرسين: الظليم والنعامة؛ لأن كل واحد منهما عِرس لصاحبه، والمركوم: الذي ركب بعضه بعضا لكثرته. علقمة الفحل، شرح ديوان علقمة الفحل، ص: 41.

17 يوحي إليها: أي يوحي الظليم إلى النعامة بصوت تفهمه عنه، الإنقض والنقنقة: صوته تراطن الروم: ما لا يفهم من كلامهم، وإنّما أراد للود أنّ الظليم يكلّم النعامة بما لا يفهمه غيرهما، كما تتكلّم العجم بما لا تفهم عنها العرب، الأفدان: القَصْر، وإنما ذكر الأفدان؛ لأن الروم أهل أبنية وقصور. نفسه، ص: 41. ومنتهى الطلب من أشعار العرب، جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي، المجلد الأول، ص: 192.

18 الصعل: الرقيق العنق، الصغير الرأس من الظّلمان، وبذلك توصف، الخرقاء: المرأة التي لا تحسن العمل، وهي: ضد الصَّناع، بيت: يعني بيتا من شعر أو وبر، المهجوم: السّاقط المهدوم، شبّه الظليم في نشر جناحيه على فراخه ببيت من شعر أطافت به خرقاء، فلم تُحسن إقامته وعمله، وكلّما رفعت جانبا منه سقط جانب آخر واسترخت عيدانه وأطنابُه وانتشرت أكنافه. في حاشية الأصل:(خرقاء: غير صناع، أطافت به فقوضته)، وفي شرح

اختيارات المفضل، ص: 1615: (الصعل: الخفيف الرأس والعنق، فيقول: يرفع جناحيه في عدوه ويحطّها، وكذلك يفعل الظليم، فكأنه بيت شَعرٍ أو صوفٍ، ترفعه امرأة خرقاء: غير صناع، فهي ترفعه، ويسقط). نفسه، ص: 192. وعلقمة الفحل، شرح ديوان علقمة الفحل ص: 41، 42.

19 تحفه هقلة: أي تغشى الظليم، وتحيط به هِقلة، وهي: النعامة، السّطعاء: الطويلة العنق؛ والسَّطاع: عمود في وسط البيت أو مقدّمه، شبّه عنقها به الخاضعة: التي أمالت رأسها ووضعته للرعي، الزمار: صوت النعامة، والعرار: صوت الظليم. نفسه، ص: 42. ومنتهى الطلب من أشعار العرب جمع: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون، تحقيق وشرح: محمد نبيل طرفي، المجلد الأول، ص: 192.

20 أوراس نصيف جاسم محمد، صور الشعراء الفنية قبل الإسلام من منظور المنهج النفسي مذكرة تخرج لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، إشراف: أحمد إسماعيل النعيمي مجلس كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2004، ص: 97.

21 وهب أحمد رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين لبنان، ط1، 1975، ص:357.

22 عماد على الخطيب، الصورة الفنية أسطوريا، دراسة في نقد وتحليل الشعر الجاهلي ص:236.

23 كامل عبد ربّه حمدان الجبوري، الطير ودلالته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام، دار الينابيع، دمشق، سورية، ط1، 2010، ص: 64.

24 أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، ط1، 1983 ص: 186_190.

25 عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، الجزء الأول: الوصف في العصر الجاهلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى اليابي الحلبي وأولاده، مصر، ط1، 1949، ج1

ص: 173.

26 إيليا الحاوي، في النقد والأدب، الجزء الأول: مقدمّات جمالية عامة، وقصائد محللة من العصر الجاهلي، الجزء الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط5، ص: 452.

27 أحمد موسى النوتي، الصحراء في الشعر الجاهلي، ص: 166.

28 كامل عبد ربّه حمدان الجبوري، الطير ودلالته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام، ص: 237.

29 نفسه، ص: 73.

30 وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص: 206.

31 أوراس نصيف جاسم محمد، صور الشعراء الفنية قبل الإسلام من منظور المنهج النفسي، مذكرة تخرج لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها إشراف: أحمد إسماعيل النعيمي، ص: 97.

32 الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255ه)، الحيوان، ج1، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1969، ص: 144.

33 وهب أحمد رومية، شعرنا القديم والنقد الجديد، ص: 206.